

القدر

عناصر الموضوع

١٩٢	مفهوم القدر
١٩٣	القدر في الاستعمال القرآني
١٩٤	الألفاظ ذات الصلة
١٩٦	الإيمان بالقدر
٢٠٩	الخلق والقدر
٢١٤	التعامل مع القدر

مفهوم القدر

أولاً: المعنى اللغوي:

أصل مادة (قدر) تدل على مبلغ الشيء وكنهه ونهايته، والقدر: قضاء الله تعالى الأشياء على مبالغها ونهاياتها التي أرادها لها^(١).

و«القدر والتقدير: تبيين كمية الشيء، يقال: قدرته وقدرته، وقدره بالتشديد: أعطاه القدرة، يقال: قدرني الله على كذا وقواني عليه، فتقدير الله الأشياء على وجهين: أحدهما: بإعطاء القدرة.

والثاني: بأن يجعلها على مقدار مخصوص، ووجه مخصوص، حسبما اقتضت الحكمة»^(٢).

«والقدير: هو الفاعل لما يشاء على قدر ما تقتضي الحكمة، لا زائداً عليه، ولا ناقصاً عنه، ولذلك لا يصح أن يوصف به إلا الله تعالى»^(٣).

ثانياً: المعنى الاصطلاحي:

عرف ابن الأثير القدر بأنه: «عبارة عما قضاه الله وحكم به من الأمور»^(٤).
وقيل: «هو: تقدير الله تعالى الأشياء في القدم، وعلمه - سبحانه - أنها ستقع في أوقات معلومة عنده، وعلى صفات مخصوصة، وكتابته سبحانه لذلك، ومشيئته لها، ووقوعها على حسب ما قدرها جل وعلا وخلقه لها»^(٥).

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٦٢.

(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٦٥٨.

(٣) المصدر السابق.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٤/ ٢٢.

(٥) الإيمان بالقدر. الصلابي ص ١٣.

القدر في الاستعمال القرآني

وردت مادة (قدر) في القرآن الكريم (١٣١) مرة، يخص موضوع البحث منها (١٠٧) مرات^(١).

والصيغ التي وردت هي:

المثال	عدد المرات	الصيغة
﴿فَقَدَرْنَا فَنِعَمَ الْقَدِيرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٣]	١٨	الفعل الماضي
﴿وَاللَّهُ يَقْدِرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [المزمل: ٢٠]	١	الفعل المضارع
﴿أَنْ أَعْمَلَ سَيِّئَاتٍ وَقَدِرَ فِي السَّرِّ﴾ [سبأ: ١١]	١	فعل الأمر
﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُونًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]	٢٣	المصدر
﴿قُلْ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٣٧]	١٨	اسم الفاعل
﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُونًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]	١	اسم المفعول
﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠]	٤٥	الصفة المشبهة

وجاء القدر في الاستعمال القرآني على ثلاثة أوجه^(٢):

- الأول: العظمة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]. أي: ليلة العظمة.
- الثاني: التصوير، ومنه قوله تعالى: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعَمَ الْقَدِيرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٣]. أي: صورنا فنعم المصورون.
- الثالث: الجعل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ﴾ [يونس: ٥]. أي: جعل له منازل.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص ٥٣٦-٥٣٨.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الداغاني ص ٣٨٣-٣٨٤، الوجوه والنظائر، أبو هلال العسكري ص ٣٩٨-٣٩٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ القضاء:

القضاء لغة:

«أصل كل قضاء أمر: الإحكام، والفراغ منه، ومن ذلك قيل للحاكم بين الناس: القاضي بينهم، لفصله القضاء بين الخصوم، وقطعه الحكم بينهم وفراغه منه به»^(١).

القضاء اصطلاحًا:

لا يختلف معناه الاصطلاحي عن معناه اللغوي.

الصلة بين القدر القضاء:

قال الخطابي رحمه الله: «إنهما أمران لا ينفك أحدهما عن الآخر، لأن أحدهما بمنزلة الأساس والآخر بمنزلة البناء، فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه»^(٢).

٢ المشيئة:

المشيئة لغة:

المشيئة مهموزة: الإرادة، وقد شئت الشيء أشاؤه^(٣).

المشيئة اصطلاحًا:

هي إرادة الله وأمره.

الصلة بين القدر والمشيئة:

القدر أعم من المشيئة، فالمشيئة جزء من القدر، وما قدره الله فقد شاءه.

٣ الإرادة:

الإرادة لغة:

وهي: نقيض الكراهة، أو هي: المشيئة، والمشهور ترادفهما^(٤).

الإرادة اصطلاحًا:

إرادة الله النافذة.

(١) جامع البيان، الطبري ٥٤٢/٢ باختصار.

(٢) معالم السنن، الخطابي ٣٢٣/٤.

(٣) النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير ٥١٧/٢.

(٤) التبيان في تفسير غريب القرآن، ابن الهائم ص ٦٢.

الصلة بين القدر والإرادة لغة:

القدر أعم من الإرادة، فالإرادة جزء من القدر، وما قدره الله فقد أرادته.

٤ الحكم:

الحكم لغة:

أصله في اللغة: المنع للإصلاح، والحكم بالشيء: أن تقضي بأنه كذا، أو ليس بكذا^(١).

الحكم اصطلاحًا:

لا يختلف المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي.

الصلة بين القدر والحكم:

الحكم أصله: المنع بهدف الإصلاح، أما القدر: فهو تقدير الله تعالى الأشياء في الأزل.

(١) انظر: المفردات، الراغب ص ٢٤٨.

الإيمان بالقدر

الإيمان بالقدر شأنه عظيم، ومنزلته عالية في الدين، وهو ليس على مرتبة واحدة؛ بل له مراتب، وللإيمان به فضائل وثمرات، نحاول في مطالب هذا المبحث أن نفصل - بما يقتضي المقام - هذه المسائل:

أولاً: منزلة الإيمان بالقدر:

قال الله تعالى مادحاً عباده المتقين بأول صفة من صفاتهم في أول سورة بعد الفاتحة: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقْتَصُونَ﴾ [البقرة: ٣].

ومن أعظم الغيب الذي أخفاه الله عن الخلق هو: القدر سر الله المكتوم، فالإيمان بالقدر منزلته عظيمة من دين الإسلام؛ فهو ركن من أركان الإيمان التي يقوم عليها، ولا يصح إيمان أحدٍ لم يؤمن بالقدر خيره وشره، وأنه كله من عند الله تعالى، يبين هذا بوضوح حديث جبريل الطويل، الذي رواه لنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وفيه: (قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره)، قال: صدقت^(١).

ومما يشهد لذلك: كثرة ورود (القدر) في الآيات القرآنية كما مر في مبحث (١) المفردات، الراغب ص ٨٠٣.

(الاستعمالات القرآنية للفظ القدر)، وفيها ترسيخ لمعانيه في قلوب المؤمنين به سبحانه.

قال ابن عباس رضي الله عنه: «الإيمان بالقدر نظام التوحيد، فمن وحد الله وكذب بالقدر فإن تكذيبه بالقدر نقض للتوحيد»^(٢).

فلا ينتظم أمر الدين ويستقيم إلا لمن آمن بالقدر وامثل الشرع، كما قرر ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال لأصحابه: (ما منكم من أحدٍ إلا وقد كتب مقعده من النار، ومقعده من الجنة) قالوا: يا رسول الله، أفلا نتكل على كتابنا، وندع العمل؟ قال: (اعملوا فكلٌ ميسر لما خلق له، أما من كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاء فييسر لعمل أهل الشقاوة)، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنبَرُهُ لِلْيسْرَى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ يَخْضَلْ وَاسْتَعْفَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٩﴾ فَسَنبَرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿١٠﴾﴾ [الليل: ٥-١٠].

ثانياً: مراتب القدر:

الإيمان بالقدر يقوم على أربعة مراتب، من أقر بها جميعها فإن إيمانه بالقدر يكون مكتملاً، ومن انتقص واحداً منها أو أكثر فقد اختل إيمانه بالقدر:

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، والإسلام، والقدر وعلامة الساعة، رقم ٨.

المرتبة الأولى: العلم.

علم الرب سبحانه بالأشياء قبل كونها، وقد اتفق عليها الرسل من أولهم إلى خاتمهم، واتفق عليها جميع الصحابة ومن تبعهم من الأمة، وخالفهم مجوس الأمة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: ٣٠].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مِمَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [لقمان: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَةً وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجنائيات: ٢٣].

«قال أبو إسحاق: (أي على ما سبق في علمه أنه ضال قبل أن يخلقه)، وهذا الذي ذكره جمهور المفسرين فالمعنى: أضله الله عالماً به وبأقواله، وما يناسبه ويليق به، ولا يصلح له غيره؛ قبل خلقه وبعده، وأنه أهل للضلال وليس أهلاً أن يهدي، وأنه لو هدي لكان قد وضع الهدى في غير محله وعند من لا يستحقه، والرب تعالى حكيم إنما يضع الأشياء في محالها اللائقة بها؛ فانتظمت الآية على هذا القول في إثبات القدر والحكمة التي لأجلها قدر عليه

الضلال»^(١).

وقال تعالى: ﴿وكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام: ٥٣].

«أي: ابتلينا واختبرنا بعضهم ببعض، فابتلى الرؤساء والسادة بالاتباع والموالي والضعفاء، فإذا نظر الرئيس والمطاع إلى المولى والضعيف أففة، وأنف أن يسلم وقال: هذا يمن الله عليه بالهدى والسعادة

دونى!! قال الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾!؟ وهم الذين يعرفون النعمة وقدرها، ويشكرون الله عليها بالاعتراف والذل والخضوع والعبودية، فلو كانت قلوبكم مثل قلوبهم تعرفون قدر نعمتي وتشكرونني عليها، وتذكرونني بها وتخضعون لي كخضوعهم، وتحبونني كحبهم؛ لمننت عليكم كما مننت عليهم، ولكن لمنني ونعمي محال لا تليق إلا بها، ولا تحسن إلا عندها»^(٢).

المرتبة الثانية: الكتابة.

إن الله تعالى كتب مقادير كل شيء قبل أن يخلق السماوات والأرض.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ

(١) انظر: السنة، عبد الله بن الإمام أحمد ٤٢٢/٢.

(٢) شفاء العليل، ابن القيم ص ٣٠.

الصَّلِيحُونَ ﴿١٥﴾ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَعًا لِقَوْمٍ
عَكِيدِينَ ﴿١٦﴾ [الأنبياء: ١٥٥-١٥٦].

﴿فَالزُّبُرُ﴾ هنا: جميع الكتب المنزلة من السماء لا تختص بزبور داود، و﴿الذِّكْرُ﴾ أم الكتاب الذي عند الله، و﴿الأَرْضُ﴾ الدنيا، وعباده الصالحون^(١): أمة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، هذا أصح الأقوال في هذه الآية، وهي علم من أعلام نبوة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم؛ فإنه أخبر بذلك بمكة وأهل الأرض كلهم كفار أعداء له ولأصحابه، والمشركون قد أخرجوهم من ديارهم ومساكنهم، وشتوهم في أطراف الأرض، فأخبرهم ربهم تبارك وتعالى أنه كتب في الذكر الأول أنهم يرثون الأرض من الكفار، ثم كتب ذلك في الكتب التي أنزلها على رسله.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتِينَ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [يس: ١٢].

فجمع بين الكتابين الكتاب السابق لأعمالهم قبل وجودهم، والكتاب المقارن لأعمالهم، فأخبر أنه يحييهم بعد ما أماتهم للبعث، ويجازيهم بأعمالهم، ونبه بكتابه لها على ذلك فقال: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ من خير أو شر فعلوه في حياتهم، ﴿وَآثَرَهُمْ﴾ ما سنوا من سنة خير أو شر فاقتدي بهم فيها

(١) المصدر السابق ص ٣١.

بعد موتهم، وقوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ وهو اللوح المحفوظ، وهو أم الكتاب، وهو الذكر الذي كتب فيه كل شيء، وكتابة أعمال العباد قبل أن يعملوها والإحصاء في الكتاب يتضمن علمه بها وحفظه لها والإحاطة بعددها وإثباتها فيه^(٢).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أَمْثَلُكُمْ مَا فَزَّنَّا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام: ٣٨].

«أي: الجميع علمهم عند الله، ولا ينسى واحداً من جميعها من رزقه وتدييره، سواء كان برياً أو بحرياً، كما قال: ﴿وَمَآ مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَىٰ اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [هود: ٦]. أي: مفصح بأسمائها وأعدادها ومظانها، وحاصر لحركاتها وسكناتها»^(٣).

وخير مفسر لكتاب الله تعالى هو كلام نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، فلتأمل في هذا الحديث بيان رسول الله لمعنى مرتبة الكتابة؛ عن عبادة بن الوليد بن عبادة، قال: حدثني أبي قال: (دخلت على عبادة بن

(٢) قال التستري: «أضافهم إلى نفسه وحلامهم بحلية الصلاح، معناه: لا يصلح إلا ما كان خالصاً لي، لا يكون لغيري فيه أثر» تفسير التستري ص ١٥٥.

(٣) شفاء العليل. ابن القيم ص ٣٩-٤٠ باختصار.

تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾^(٢)، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ﴾ [الأنعام: ٣٥].

وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كَثُفَهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩].

وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [هود: ١١٨].

وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢].

وقال: ﴿وَلَوْ نَشَاءَ اللَّهُ لَأَنْصَرِمَنَّ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤].

وهذه الآيات ونحوها تتضمن الرد على طائفتي الضلال: نفاة المشيئة بالكلية، ونفاة مشيئة أفعال العباد وحركاتهم وهداهم وضلالهم، وهو سبحانه تارة يخبر أن كل ما في الكون بمشيئته، وتارة أن ما لم يشأ لم يكن، وتارة أنه لو شاء لكان خلاف الواقع، وأنه لو شاء لكان خلاف القدر الذي قدره وكتبه، وأنه لو شاء ما عصي، وأنه لو شاء لجمع خلقه على الهدى، وجعلهم أمة واحدة؛ فتضمن ذلك أن الواقع بمشيئته،

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، أول كتاب السنة، باب في القدر، رقم ٤٧٠٠، والترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة ن رقم ٣٣١٩ مختصرًا. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.

وصححه البوصيري في إتحاف الخيرة المهرة ١٧٣/١.

الصامت وهو مريض يتخيل فيه الموت - أو يتبين - فقلت: يا أبتاه، أوصني واجتهد لي، فقال: أجلسوني، فلما أجلسوه قال: يا بني، إنك لن تطعم طعم الإيمان، ولن تبلغ حق حقيقة العلم حتى تؤمن بالقدر خيره وشره، قلت: يا أبتاه، وكيف لي أعلم ما خير القدر من شره؟ قال: تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، يا بني، إنني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن أول ما خلق الله عز وجل القلم قال: اكتب؛ فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة، يا بني، إن مت ولست على ذلك دخلت النار^(١).
المرتبة الثالثة: المشيئة.

إن الله سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا نَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠] أي: لا يقدر أحدٌ أن يهدي نفسه، ولا يدخل في الإيمان ولا يجر لنفسه نفعاً ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: عليم بمن يستحق الهداية فيسيرها له، ويقض له أسبابها، ومن يستحق الغواية فيصرفه عن الهدى، وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة، ولهذا قال

(١) تفسير القرآن العظيم. ابن كثير ٣/ ٢٥٣.

وأن ما لم يقع فهو لعدم مشيئته، وهذا حقيقة الربوبية، وهو معنى كونه رب العالمين، وكونه القائم بتدبير عبادته، فلا خلق ولا رزق، ولا عطاء ولا منع، ولا قبض ولا بسط، ولا موت ولا حياة، ولا إضلال ولا هدى، ولا سعادة ولا شقاوة؛ إلا بعد إذنه، وكل ذلك بمشيئته وتكوينه؛ إذ لا مالك غيره، ولا مدبر سواه، ولا رب غيره، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨].

قال الشافعي في رواية الربيع عنه: «المشيئة إرادة الله، قال الله عز وجل: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠] فأعلم الله خلقه أن المشيئة له دون خلقه وأن مشيئتهم لا تكون إلا أن يشاء الله»^(١).

بقي أن ننبه هنا في آخر هذه المرتبة إلى أن «لفظ الإرادة ينقسم إلى: إرادة كونية؛ فتكون هي المشيئة، وإرادة دينية؛ فتكون هي المحبة، إذا عرفت هذا فقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧].

وقوله: ﴿لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].
وقوله: ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْمَسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

لا يناقض نصوص القدر والمشيئة العامة الدالة على وقوع ذلك بمشيئته وقضائه وقدره؛ فإن المحبة غير المشيئة، والأمر غير

الخلق، ونظير هذا لفظ: (الأمر) فإنه نوعان: أمر تكوين، وأمر تشريع، والثاني قد يعصي ويخالف، بخلاف الأول، فقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦] لا يناقض قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف: ٢٨] ولا حاجة إلى تكلف تقدير: أمرنا مترفيها فيها بالطاعة فعصونا وفسقوا فيها، بل الأمر ههنا أمر تكوين وتقدير لا أمر تشريع»^(٢).

المرتبة الرابعة: الخلق.

فكل ما سوى الله تعالى فهو مخلوق له سبحانه، خلقه بعد أن علمه وكتبه وشاءه.

قال الله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

وقال سبحانه: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَدْكُرًا يُعْتَبَرُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقِ غَيْرِ اللَّهِ يُرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّقُوا اللَّهَ تَوْفَقُونَ﴾ [فاطر: ٣].

«الاستفهام في قوله: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقِ غَيْرِ اللَّهِ﴾ إنكاري فهو مضمن معنى النفي، والمعنى: لا خالق إلا الله وحده، والخالق هو المستحق للعبادة وحده»^(٣).

«قال ابن الجوزي في (المقتبس): سمعت الوزير يقول في قوله تعالى: ﴿أَذْكُرُوا﴾

(٢) شفاء العليل، ابن القيم ص ٤٤-٤٥ باختصار.
(٣) المصدر السابق ص ٤٨.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٩٥.

«ولهذا كان من تمام الإيمان بالقدر أن تؤمن بأن الله تعالى خالقُ لأفعال العباد كما قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦].

ووجه ذلك: أن فعل العبد من صفاته، والعبد مخلوق لله، وخالق الشيء خالق لصفاته، ووجهٌ آخر: أن فعل العبد حاصل بإرادة جازمة وقدرة تامة، والإرادة والقدرة كلتاهما مخلوقتان لله عز وجل، وخالق السبب التام خالق للمسبب.

فإن قيل: كيف نجتمع بين أفراد الله عز وجل بالخلق مع أن الخلق قد ثبت لغير الله، كما يدل عليه قول الله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]؟

فالجواب على ذلك: أن غير الله تعالى لا يخلق كخلق الله، فلا يمكنه إيجاد معدوم، ولا لإحياء ميت، وإنما خلق غير الله تعالى يكون بالتغيير وتحويل الشيء من صفة إلى صفة أخرى، وهو مخلوق لله عز وجل، فالمصور مثلا إذا صور صورة فإنه لم يحدث شيئا! غاية ما هنالك أنه حول شيئا إلى شيء، كما يحول الطين إلى صورة طير أو صورة جمل، وكما يحول بالتلوين الرقعة البيضاء إلى صورة ملونة، فالممداد من خلق الله عز وجل، والورقة البيضاء من خلق الله عز وجل، هذا هو الفرق بين إثبات الخلق بالنسبة إلى الله عز وجل، وإثبات الخلق

نِعَمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرُ اللَّهِ ﴿ قال: فطلبت الفكر في المناسبة بين ذكر النعمة وبين قوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾؛ فرأيت أن كل نعمة ينالها العبد فالله خالقها، فقد أنعم بخلقه لتلك النعمة، ويسوقها إلى المنعم عليه»^(١).

«فلا خالق إلا الله، وأعمال عباد الله مخلوقة لله مقدورة له كما قال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦].

والعباد لا يقدر أن يخلقوا شيئا وهم يخلقون، كما قال: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣].

وكما قال: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الفرقان: ٣].

وكما قال: ﴿أَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧].

وكما قال: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥] وهذا في كتاب الله كثير»^(٢).

قال ابن القيم: «وبالجملة فكل دليل في القرآن على التوحيد فهو دليل على القدر وخلق أفعال العباد، ولهذا كان إثبات القدر أساس التوحيد، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: «الإيمان بالقدر نظام التوحيد، فمن كذب بالقدر نقض تكذيبه التوحيد»^(٣).

(١) أضواء البيان، الشقيطي ٦/ ٢٧٨.

(٢) تفسير ابن رجب الحنبلي ٢/ ٩٥.

(٣) الفتاوى الكبرى، ابن تيمية ٦/ ٦٥٦.

بالنسبة إلى المخلوق، وعلى هذا يكون الله سبحانه وتعالى منفردًا بالخلق الذي يختص به»^(١).

ثالثًا: الاحتجاج بالقدر:

يجب على كل مؤمن بالله تعالى أن يوقن أنه سبحانه له الحكمة البالغة في كل خلقه، وأنه سبحانه ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

فهو عز وجل: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

و﴿بِهِتْ لِمَنْ يَشَاءُ إِنشَاءً وَيَهْتَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ [٩١] أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثَاءً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [٥٠].

[الشورى: ٤٩-٥٠].

و﴿يُوَفِّي مَلَكَهُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

و﴿يُوَفِّي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

و﴿رِزْقٌ مِّنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

إذا عرف هذا فنقول:

إنه يحرم الاحتجاج على الله تعالى بالقدر؛ كأن يقول الزاني مثلاً: ما زانيت من تلقاء نفسي! وإنما قدر الله علي الزنا! أو يقول المريض مثلاً: لماذا يا رب قدرت

علي هذا المرض! فإن الله سبحانه لم ولن يكلف أحداً من خلقه ما لا طاقة له به، كما قال سبحانه: ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٣٣].

وقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

فقد أرشدنا القرآن إلى أن المؤمن إن أصابه بلاء أو مصيبة صبر وقال: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦].

وإن وقع في معصية لله تعالى قال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ [القصص: ١٦].

وأما الاحتجاج على الله تعالى بالقدر فإنما هو من سنن إبليس اللعين، حيث قال لله جل وعلا: ﴿قَالَ فِيمَا آغَاوَيْتَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦].

مع أنه هو الذي أبقى أن يسجد لأدم - مختاراً - كما أمره الله! وهذا الاحتجاج

بالقدر هو أيضاً من سنن المشركين الذين حكى الله نبأهم أنهم قالو: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

وهذه شبهة تشبث بها المشركون في شركهم وتحريم ما حرموا؛ فإن الله مطلع على ما هم فيه من الشرك والتحريم لما

(١) شفاء العليل، ابن القيم ص ٦٥.

جعل على قلوب الكفار أكنة - وهو ما يستر الشيء ويغطيه ويكنه - لئلا يفقهوا القرآن، أو كراهة أن يفقهوه، لحيلولة تلك الأكنة بين قلوبهم وبين فقه القرآن؛ أي: فهم معانيه فهماً يتفجع به صاحبه، وأنه جعل في آذانهم وقرآء أي صمماً وثقلاً لئلا يسمعه سماع قبول وانتفاع.

وحتى لا يكون لهؤلاء الضلال حجة على الله في إضلالهم؛ بين سبحانه في مواضع آخر سبب الحيلولة بين القلوب وبين الانتفاع به، وأنه هو كفرهم، فجازاهم الله على كفرهم بطمس البصائر، وإزاعة القلوب، والطبع والختم والأكنة المانعة من وصول الخير إليها، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

وقوله: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥].

وقوله: ﴿وَنَقَلْنَا آفَئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُؤُا بِإِذِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقوله: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠].

وقوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٥].

إلى غير ذلك من الآيات (٣).

إن الاحتجاج بالقدر يتضمن تنزيه

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٣٥٧.

حرموه، وهو قادر على تغييره بأن يلهمنا الإيمان، أو يحول بيننا وبين الكفر، فلم يغيره، فدل على أنه بمشيئته وإرادته ورضاه منا ذلك؛ ولهذا قال: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاءَؤُنَا وَلَا حَرَمًا مِنْ شَيْءٍ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَّا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ [الزخرف: ٢٠].

وكذلك الآية التي في «النحل» مثل هذه سواء، قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: بهذه الشبهة ضل من ضل قبل هؤلاء، وهي حجة داحضة باطلة؛ لأنها لو كانت صحيحة لما أذاقهم الله بأسه، ودمر عليهم، وأدال (١) عليهم رسله الكرام، وأذاق المشركين من آليم الانتقام، ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: بأن الله تعالى راض عنكم فيما أنتم فيه ﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ أي: فتظهروه لنا وتبينوه وتبرزوه، ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ أي: الوهم والخيال، والمراد بالظن ها هنا: الاعتقاد الفاسد ﴿وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُخْرَصُونَ﴾ أي: تكذبون على الله فيما ادعيتموه (٢).

لقد قال الله سبحانه عن أمثال هذا الصنف: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: ٢٥].

فبين جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه

(١) مجموع فتاوى ورسائل العثميين ١٨/١.

(٢) أدال الشيء: جعله مداولة، أي: تارة لهؤلاء وتارة للآخرين.

ثم جعل له سمعًا وبصرًا، ونصب الأدلة على وجوده وقدرته على بعث الموتى، ومن ثم مجازاتهم على أعمالهم، وأرسل إليه رسله، وهداه النجدين، ثم هو بعد ذلك إما شاكرًا وإما كفورًا، ولو احتج إنسان في الدنيا بالقدر لقليل له: هل عندك علم بما سبق في علم الله عليك؟^(٢).

فإن قال: نعم! فقد كذب، وإن قال: لا، قيل له: إذن فابذل الأسباب التي تجعلك من الفائزين بالجنة الناجين من النار.

ولا يعني ما سبق أن الاحتجاج بالقدر محرمٌ مطلقًا؛ بل المحرم ما كان فيه اعتراض على قدر الله تعالى، أو فيه دعوة للعاصي ليستمر في معصيته، لذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (احتج آدم وموسى، فقال له موسى: أنت آدم الذي أخرجتك خطيبتك من الجنة، فقال له آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، ثم تلومني على أمرٍ قدر علي قبل أن أخلق!) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فحج آدم موسى) مرتين^(٣).

قال ابن عثيمين رحمه الله: «لهذا فإن

الجاني نفسه، وتنزيه ساحته، وهو الظالم الجاهل! ولو علم هذا الظالم الجاهل أن بلاءه من نفسه ومصابه منها، وأنها أولى بكل ذم وظلم، وأنها مأوى كل سوء، و﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦].

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: كفور جحود لنعم الله. وقال الحسن: هو الذي يعد المصائب، وينسى النعم.

فهو الغيم المانع لإشراق شمس الهدى على القلب، فما عليه أضر منه، ولا له أعداء أبلغ في نكايته وعداوته منه.

يحتج على ربه بما لا يقبله من عبده وامرأته وأمه إذا احتجوا به عليه في التهاون في بعض أمره، فلو أمر أحدهم بأمر ففرط فيه، أو نهاه عن شيء فارتكبه، وقال: القدر ساقني إلى ذلك؛ لما قبل منه هذه الحجة، ولبادر إلى عقوبته.

فإن كان القدر حجة لك أيها الظالم الجاهل في ترك حق ربك؛ فهلا كان حجة لعبدك وأمتك في ترك بعض حقتك؟! بل إذا أساء إليك مسيء، وجنى عليك جان، واحتج بالقدر لاشتد غضبك عليه، وتضاعف جرمه عندك، ورأيت حجته داحضة، ثم تحتج على ربك به، وتراه عذرا لنفسك؟! فمن أولى بالظلم والجهل ممن هذه حاله؟!^(١).

ويعد: فإن «الله خلق الإنسان من نطفة

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ١٦٠.

(٢) المصدر السابق ٨/ ١٩٨.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب وفاة موسى، وذكره بعد رقم ٣٤٠٩، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب حجج آدم وموسى عليهما السلام، رقم ٢٦٥٢.

قال السعدي رحمه الله: «وهذا شامل لعموم المصائب التي تصيب الخلق، من خير وشر، فكلها قد كتبت في اللوح المحفوظ، صغيرها وكبيرها، وهذا أمرٌ عظيم لا تحيط به العقول، بل تذهل عنده أفئدة أولي الألباب، ولكنه على الله يسير.

وأخبر الله عباده بذلك لأجل أن تتقرر هذه القاعدة عندهم، وبينوا عليها ما أصابهم من الخير والشر، فلا يأسوا ويحزنوا على ما فاتهم، مما طمحت له أنفسهم وتشوفوا إليه، لعلمهم أن ذلك مكتوب في اللوح المحفوظ، لا بد من نفوذه ووقوعه، فلا سبيل إلى دفعه، ولا يفرحوا بما آتاهم الله فرح بطر وأشر، لعلمهم أنهم ما أدركوه بحولهم وقوتهم، وإنما أدركوه بفضل الله ومنه، فيشتغلوا بشكر من أولى النعم ودفع النقم، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي: متكبر فظٍ غليظ، معجب بنفسه، فخور بنعم الله، ينسبها إلى نفسه، وتطغيه وتلهيه، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا حَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّا أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٤٩) [الزمر: ٤٩].^(٢)

وهذا لا يعني أن الفرح بالنعم والحزن على المصائب محرم بإطلاق! بل يفرح بنعم الله فرحاً يقوده لشكر ربه، ويحزن على

الاحتجاج بالقدر على المصائب لا بأس به، أرايت لو أنك سافرت سفراً وحصل لك حادث، وقال لك إنسان: لماذا تسافر؟! لو أنك بقيت في بيتك ما حصل لك شيء!

فستجيبه: إن هذا قضاء الله وقدره، أنا ما خرجت لأجل أن أصاب بالحادث، وإنما خرجت لمصلحة، فأصبت بالحادث»^(١).

رابعاً: ثمرات الإيمان بالقدر:

من تأمل في عقيدة القدر التي جاء بها الإسلام وجد لها ثماراً كبيرة طيبة، كانت ولا زالت سبباً في صلاح الفرد والأمة، وسأحاول أن أذكر هنا بعض ثماره التي ظهرت خلال آيات القرآن الكريم:

١. تجنب الأسى والفرح المذمومين.

فالإيمان بالقدر يري الإنسان أن كل شيء في الوجود إنما يسير وفق حكمة عليا، فإذا مسه الضر فإنه لا يجزع، وإذا حالقه التوفيق والنجاح فإنه لا يفرح فرحاً يوصله للبطر والفخر.

وهذا هو معنى قول الله سبحانه: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (٢٢) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (٢٣) [الحديد: ٢٢-٢٣].

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٤٢.

(١) مجموع فتاوى ورسائل العثميين ١٠٦/٢.

أو حرمان.

ثم يفصل حالات العطاء والحرمان: فهو ﴿يَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنْتِثًا﴾ وهم كانوا يكرهون الإناث، ﴿وَيَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكُورَ﴾، ويهب لمن يشاء أزواجاً من هؤلاء وهؤلاء، ويحرم من يشاء فيجعل عقيماً - والعقم يكرهه كل الناس -، وكل هذه الأحوال خاضعة لمشيئة الله، لا يتدخل فيها أحد سواه، وهو يقدرها وفق علمه وينفذها بقدرته: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾^(١).

وقوله سبحانه: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾^(٦١) [الأنعام: ٩٦].

قال الرازي: «والعزیز إشارة إلى كمال قدرته والعليم إشارة إلى كمال علمه، ومعناه أن تقدير أجرام الأفلاك بصفاتھا المخصوصة وهيئاتھا المحدودة، وحركاتھا المقدرة بالمقادير المخصوصة في البطء والسرعة لا يمكن تحصيله إلا بقدرته كاملة متعلقة بجميع الممكنات وعلم نافذ»^(٢).

وقوله جل وعلا: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾^(٥٤) [الروم: ٥٤].

قال السعدي: «يخبر تعالى عن سعة

وشكرهم هذا لله تعالى إنما هو نابع عن إيمانهم الراسخ بأن الله تعالى هو الذي قدر لهم تلك النعم وأقدرهم عليها، ومعلوم أن الشكر هو طريق المزيد، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

٤. معرفة سعة علم الله تعالى وعظيم قدرته.

فإن الله تعالى كثيرًا ما يختتم آيات الخلق والقدر والمشيئة باسميه: العليم والقدير، من ذلك على سبيل المثال:

قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنْتِثًا وَيَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكُورَ﴾^(٦١) أَوْ يَرْوِجُهُمْ ذَكَرَانًا وَإِنْتِثًا وَجَعَلَ مِنْ يَشَاءٍ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٤﴾ [الشورى: ٤٩-٥٠].

«والذرية مظهر من مظاهر المنح والمنع والعطاء والحرمان، وهي قريبة من نفس الإنسان، والنفس شديدة الحساسية بها، فلمسها من هذا الجانب أقوى وأعمق.

والتقديم بأن لله ملك السماوات والأرض هو التقديم المناسب لكل جزئية بعد ذلك من توابع هذا الملك العام، وكذلك ذكر: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ فهي توكيد للإحياء النفسي المطلوب في هذا الموضع.

ورد الإنسان، المحب للخير، إلى الله الذي يخلق ما يشاء مما يسر وما يسوء ومن عطاء

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/٣١٦٩.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٣/٧٩.

علمه وعظيم اقتداره وكمال حكمته، ابتداءً خلق الآدميين من ضعف؛ وهو الأطوار الأول من خلقه من نطفة إلى علقة إلى مضغة، إلى أن صار حيواناً في الأرحام إلى أن ولد، وهو في سن الطفولية وهو إذ ذاك في غاية الضعف وعدم القوة والقدرة، ثم ما زال الله يزيد في قوته شيئاً فشيئاً حتى بلغ سن الشباب، واستوت قوته، وكملت قواه الظاهرة والباطنة، ثم انتقل من هذا الطور ورجع إلى الضعف والشيبة والهرم.

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ بحسب حكمته، ومن حكمته أن يري العبد ضعفه وأن قوته محفوفة بضعفين، وأنه ليس له من نفسه إلا النقص، ولولا تقوية الله له لما وصل إلى قوة وقدرة، ولو استمرت قوته في الزيادة لطغى وبغى وعتا.

وليعلم العباد كمال قدرة الله التي لا تزال مستمرة يخلق بها الأشياء، ويدبر بها الأمور ولا يلحقها إعياء ولا ضعف ولا نقص بوجه من الوجوه^(١).

٥. مواجهة الصعاب والأخطار بقلب ثابت^(٢).

يبين هذه الثمرة بجلاء: ما حكى الله تعالى من حال المنافقين مع النبي صلى الله عليه وسلم، وأنهم كانوا يفرحون بما

يصبه من بلاء، ويحزنون لما يصبه من نصر وخير، فقال سبحانه: ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَكَتَلُوا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ [التوبة: ٥٠].

وهنا يدل الله تعالى نبيه - وهو تعليم لجميع أمته - للتصرف الأمثل مع هؤلاء وأمثالهم فيقول سبحانه: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].

«أي: قدره وأجراه في اللوح المحفوظ»^(٣).

قال ابن الجوزي في (المقتبس): سمعت الوزير يقول في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾، قال: إنما لم يقل: «ما كتب علينا» لأنه أمرٌ يتعلق بالمؤمن، ولا يصيب المؤمن شيء إلا وهو له، إن كان خيراً، فهو له في العاجل، وإن كان شراً فهو ثواب في الآجل^(٤).

ويشير سيد قطب رحمه الله للفتة أخرى فيقول في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾: والله قد كتب للمؤمنين النصر، ووعدهم به في النهاية، فمهما يصبهم من شدة، ومهما يلاقوا من ابتلاء؛ فهو إعداد للنصر الموعود، لينال المؤمنون عن بينة،

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٣٩.

(٤) انظر: تفسير ابن رجب الحنبلي ١/ ٥٢٥.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٤٤.

(٢) القضاء والقدر، الأشقر ص ١١٠.

الخلق والقدر

الخلق هو المرتبة الرابعة من مراتب القدر، والخلق صفة من صفات الله تعالى الفعلية، فهو سبحانه يقول للشيء: (كن) فيكون كما يريد الله سبحانه، وفي الزمن الذي يريد، وبالكيفية التي يريد، لا يتخلف عن قدرته سبحانه شيء في الأرض ولا في السماء.

أولاً: القدر سرٌّ من أسرار الله تعالى:

قضية القدر من أخطر القضايا وأغمضها، قال الله سبحانه: ﴿لَا يَسْتَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

قال الطحاوي: «فويل لمن صار لله تعالى في القدر خصيماً، وأحضر للنظر فيه قلباً سقيماً، لقد التمس بوهمه في فحص الغيب سرّاً كتيماً»^(٢) أي: طلب بوهمه في البحث عن الغيب سرّاً مكتوماً، إذ القدر سر الله في خلقه، فهو يروم ببحثه الاطلاع على الغيب، وقد قال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَكْفُرُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِالْغَيْبِ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].
وصح عن نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم قوله: (إذا ذكر القدر فأمسكوا)^(٣).

(٢) العقيدة الطحاوية، الطحاوي ص ٥٣.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، ١٠/١٩٨، رقم ١٠٤٤٨.

وحسن إسناده العراقي في المغني عن حمل الأسفار. العراقي ص ٣٩.

وبعد تمحيص، وبوسائله التي اقتضتها سنة الله، نصرًا عزيزًا لا رخيصًا، وعزة تحميها نفوس عزيزة مستعدة لكل ابتلاء، صابرة على كل تضحية^(١).

فانظر كيف علمهم الله أن يواجهوا الأزمات والمحن والصعاب بذلك الإيمان الراسخ العظيم بقدر الله تعالى وقضائه، وهكذا فليكن أهل الإيمان في كل زمان ومكان.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٦٦٤.

ثانياً: شمولية القدر لجميع المخلوقات:

قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣].

«وهذا نص صريح أنه تعالى قد جعل لكل شيء من الأشياء - أيًا كان هو - قدرًا لا يتعداه لا بزيادة ولا بنقص، ولفظ (شيء) أعم العمومات.

وقد جاءت آيات كثيرة دالة على هذا العموم عامة وخاصة:

فمن الآيات العامة قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَكَلِّ شَيْءًا خَلْقَهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

وهذا شامل للمخلوقات والعوالم العلوية والسفلية، أن الله تعالى وحده خلقها لا خالق لها سواه، ولا مشارك له في خلقها، وخلقها بقضاء سبق به علمه، وجرى به قلمه، بوقتها ومقدارها، وجميع ما اشتملت عليه من الأوصاف، وذلك على الله يسير، فلهذا قال بعدها: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

وقوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

وقوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ مَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

«قدر حجمه وشكله، وقدر وظيفته وعمله، وقدر زمانه ومكانه، وقدر تناسقه

(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٢٨.

قال طاووس رحمه الله لرجل: «القدر سر الله تعالى، فلا تدخل فيه»^(١).

ولكن على المسلم النظر فيما بينه الله تعالى في كتابه ورسوله عليه الصلاة والسلام في سنته في شأن القدر، ولا يسترسل مع عقله في هذا الباب العظيم، ولا يطلق لنفسه العنان بالقراءة في كتب أهل الكلام أو غيرهم ممن لم يلتزموا الوحي في حديثهم عن القدر.

قال الطحاوي رحمه الله: «وأصل القدر سر الله تعالى في خلقه، لم يطلع على ذلك ملكًا مقربًا، ولا نبيًا مرسلًا، والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان، وسلم الحرمان، ودرجة الطغيان، فالحذر كل الحذر من ذلك نظرا وفكرا ووسوسة، فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه^(٢)، ونهاهم عن مرآه^(٣)، كما قال تعالى في كتابه: ﴿لَا يَسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

فمن سأل - سؤال تكذيب وتعنت - لم فعل؟ فقد رد حكم الكتاب، ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين^(٤)، أما من سأل سؤال راغب في المعرفة طالب للحق فنعم ما صنع؛ فقد أمر الله سبحانه بسؤال أهل العلم.

(١) الشريعة، الأجرى ٢/ ٩٤٠.

(٢) خَلَقَهُ.

(٣) طَلَبَهُ.

(٤) شرح الطحاوية، ابن أبي العز ص ٢٤٩.

وكان في إمكانها أن تشعل كل شيء قابل للاحتراق، ولو كانت تسير ببطء رصاصية البندقية لارتطمت كلها بالأرض، ولكانت العاقبة مروعة!

أما الإنسان فإن اصطدامه بشهاب ضئيل يسير بسرعة تفوق سرعة الرصاصه تسعين مرة كان يمزقه إربًا من مجرد حرارة مروره! (٢).

ومن التقدير الخاص قوله: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝٣٨ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ۝٣٩ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا آيِلُ سَائِبُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٤٠﴾ [يس: ٣٨-٤٠].

إنها قدرة باهرة وحكمة بالغة، وإرادة قاهرة، وسلطة غالبية، قدرة من أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، وقد قال علماء الهيئة: أن حساب مسير هذه الأفلاك في منازلها أدق ما يكون من مئات أجزاء الثانية، ولو اختلف جزءٌ من الثانية لاختل نظام العالم، ولما صلحت على وجه الأرض حياة! ونحن نشاهد حركة الليل والنهار ونقصانها وزيادةها وفصول السنة كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَمْدُدُ إِلَيْكَ وَالنَّهَارَ عَلَيْهِمْ لَأَنَّ شَحْصُوهٗ﴾ [المزمل: ٢٠] وهو سبحانه وتعالى يحصيه.

مع غيره من أفراد هذا الوجود الكبير. وإن تركيب هذا الكون وتركيب كل شيء فيه، لما يدعو إلى الدهشة حقًا، وينفي فكرة المصادفة نفيًا باتًا.

ويظهر التقدير الدقيق الذي يعجز البشر عن تتبع مظاهره، في جانب واحد من جوانب هذا الكون الكبير.

وكلما تقدم العلم البشري فكشف عن بعض جوانب التناسق العجيب في قوانين الكون ونسبه ومفرداته؛ اتسع تصور البشر لمعنى ذلك النص القرآني الهائل: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾.

يقول (أ. كريسي موريسون) رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك في كتابه بعنوان: «الإنسان لا يقوم وحده» (١)، «ومما يدعو إلى الدهشة أن يكون تنظيم الطبيعة على هذا الشكل، بالغا هذه الدقة الفائقة، لأنه لو كانت قشرة الأرض أسمك مما هي بمقدار بضعة أقدام لامتص ثاني أكسيد الكربون الأوكسجين، ولما أمكن وجود حياة النبات، ولو كان الهواء أرفع كثيرًا مما هو فإن بعض الشهب التي تحترق الآن بالملايين في الهواء الخارجي كانت تضرب جميع أجزاء الكرة الأرضية! وهي تسير بسرعة تتراوح بين ستة أميال وأربعين ميلا في الثانية،

(١) ترجمه محمود صالح الفلكي بعنوان: «العلم يدعو إلى الإيمان».

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/٢٥٤٨.

أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴿٣٨﴾ [الأحزاب: ٣٨] «أي: وكان أمره الذي يقدره كائنا لا محالة، وواقعا لا محيد عنه ولا معدل، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن» (٣).

ويقول جل وعلا: ﴿يَدْبِقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧] قال الشنقيطي رحمه الله: «ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه لا يتعاضى على قدرته شيء، وإذ يقول للشيء: «كن»؛ فيكون بلا تأخير، وذلك أن الكفار لما أقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت، ورد الله عليهم كذبهم بقوله: ﴿بَلَىٰ وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [النحل: ٣٨] بين أنه قادر على كل شيء، وأنه كلما قال لشيء: «كن»؛ كان.

وأوضح هذا المعنى في مواضع أخرى؛ كقوله في الرد على من قال: ﴿مَنْ يُنْجِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

وبين أنه لا يحتاج أن يكرر قوله: «كن»، بل إذا قال للشيء: «كن» مرة واحدة، كان في أسرع من لمح البصر، في قوله: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

ونظيره قوله: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّكَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١١].

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤٢٧/٦.

وكذلك التقدير لوجود الإنسان قبل وبعد وجوده، قال تعالى: ﴿مِنْ أَمْرِ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ (١٨) مِنْ تَلْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ﴿١٩﴾ [عبس: ١٨-١٩].

أي: قدر خلقه وصورته ونوعه كما بين ذلك بقوله: ﴿بَهْبٌ لِمَنْ يَشَاءُ إِنشَاءً وَبَهْبٌ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورِ﴾ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثَاءً وَجَعَلَ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلَيْهِ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ [الشورى: ٤٩-٥٠].

وقد جمع العام والخاص قوله سبحانه: ﴿وَلَنْ يَمُنَّ شَيْءٌ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِلُ إِلَّا بِالْقَدْرِ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١] (١).

ثالثاً: وقوع الأمر المقدر لا محالة:

الله سبحانه وتعالى غالب على أمره، فما شاء كان في الوقت والمكان وعلى الصفة التي شاءها سبحانه، وما لم يشأ لم يكن ولو اجتمع له من في السماوات والأرض من دونه سبحانه، قال الله تعالى حاكياً قول جبريل عليه السلام لمريم عليها السلام: ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ وَلَنَجْعَلَنَّكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَأَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٢١] أي: «وكان خلقه منك أمراً قد قضاه الله، ومضى في حكمه وسابق علمه أنه كائن منك» (٢).

وفي هذا المعنى يقول سبحانه: ﴿وَكَانَ

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٢١٣/٨ بتصرف.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/١٦٥، تفسير

القرآن العظيم، ابن كثير ٥/٢٢١.

أجال حياتكم لفنائكم ومماتكم، ليعيدكم ترابًا وطينا كالذي كنتم قبل أن ينشئكم ويخلقكم، ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ [الأنعام: ٢] لإعادتكم أحياء وأجسامًا كالذي كنتم قبل مماتكم، وذلك نظير قوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَنًا فَأَخْبَعْنَاكُمْ ثُمَّ يُبْسِتْكُمْ ثُمَّ يُجْبِسْكُمْ ثُمَّ لِيُنْزِعُوا رُجُومًا﴾ [البقرة: ٢٨] (٢).

وقال عن اليوم المشهود: ﴿ذَلِكَ يَوْمَ تَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمَ مَشْهُودٌ﴾ [١٠٣] وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ ﴿١٠٤﴾ [هود: ١٠٣-١٠٤].

أي: «وما تؤخر يوم القيامة عجزًا عن ذلك، لكن القضاء السابق قد نفذ فيه بأجل محدود لا يتقدم عنه ولا يتأخر» (٣).

وقال سبحانه عن الشمس والقمر: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ٢].

«والأجل: هو المدة التي قدرها الله لدوام سيرها، وهي مدة بقاء النظام الشمسي الذي إذا اختل انتشرت العوالم وقامت القيامة. والمسمى: أصله المعروف باسمه، وهو هنا كناية عن المعين المحدد، إذ التسمية تستلزم التعيين والتمييز عن الاختلاط» (٤).

(٢) جامع البيان، الطبري ١٥٤/٩.

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢٠٦/٣.

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨١/١٣.

شَيْءٌ وَقَدِيرٌ﴾ [النحل: ٧٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

وقال: ﴿مَا خَلَقْنَاكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]. إلى غير ذلك من الآيات» (١).

رابعًا: كل شيء بأجل معلوم:

قال الله سبحانه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [١] هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ [الأنعام: ١-٢].

قال الطبري بعد أن استعرض الأقوال في معنى هذه الآية: «وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال: معناه: ثم قضى أجل هذه الحياة الدنيا، ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ [الأنعام: ٢].

وهو أجل البعث عنده، وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب: لأنه تعالى نبه خلقه على موضع حجته عليهم من أنفسهم، فقال لهم: أيها الناس! إن الذي يعدل به كفاركم الآلهة والأنداد هو الذي خلقكم! فابتدأكم وأنشأكم من طين، فجعلكم صورًا أجسامًا أحياء بعد إذ كنتم طينًا جمادًا، ثم قضى

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٣٧٧/٢.

التعامل مع القدر

القدر لأنه ركن من أركان الإيمان بالله تعالى؛ فقد علمنا الله تعالى في كتابه الكريم كيف نتعامل معه، وسنلخص -بعون الله- في هذا المبحث طرق التعامل مع القدر التي دلنا القرآن الكريم عليها، من خلال النقاط الآتية:

أولاً: الرضا بالقدر.

قال الله تعالى في أربعة مواضع يصف أهل الإيمان والطاعة: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

قال ابن عطية: «قيل ذلك في الدنيا، فرضاه عنهم هو ما أظهره عليهم من أمارات رحمته وغفرانه، ورضاهم عنه: هو رضاهم بجميع ما قسم لهم من جميع الأرزاق والأقدار، قال بعض الصالحين: رضى العباد عن الله رضاهم بما يرد من أحكامه، ورضاه عنهم أن يوفقهم للرضى عنه»^(٢).

الرضا بالقدر واجب؛ لأنه من تمام الرضا بربوبية الله، فيجب على كل مؤمن أن يرضى بقضاء الله، ولكن المقضي فيه تفصيل؛ فالمقضي غير القضاء: لأن القضاء فعل الله، والمقضي مفعول الله، فالقضاء الذي هو فعل الله يجب أن نرضى به، ولا يجوز أبداً أن نسخطه بأي حال من الأحوال.

وهذا الأجل الذي جعله الله تعالى لكل شيء؛ قد جعله الله تعالى في كتابه عنده لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨] وقوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ لفظ عام في جميع الأشياء التي لها آجال، وذلك أنه ليس كائنٌ منها إلا وله أجل في بدئه أو في خاتمته، وكل أجل مكتوب محصور، فأخبر تعالى عن كتبه الآجال التي للأشياء عامة»^(١).

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/٣١٦.

(٢) المصدر السابق ٥/٥٠٩.

بما يخالف الشرع وينافي الصبر.
والرضا: لا يكون كارها للواقع، فيكون ما وقع وما لم يقع عنده سواء، فهذا هو الفرق بين الرضا والصبر؛ ولهذا قال الجمهور: إن الصبر واجب، والرضا مستحب^(١)، قال الله تعالى عن المؤمنين الذين تحزبت عليهم قوى الكفر، حتى بلغت منهم القلوب الحناجر: ﴿وَلَمَّا رَمَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ٢٢﴾ [الأحزاب: ٢٢] فرضوا وسلموا أمرهم لله تعالى، وزاد يقينهم بموعود الله ورسوله، بخلاف المنافقين الذين فروا وهربوا من الموت يستأذنون رسول الله في الرجوع لديارهم بعد أن عاهدوا الله لا يولون الأديبار!

ثانيًا: الصبر:

ومما يميز المؤمن عن غيره في موضوع القدر هو: الصبر على أقدار الله تعالى المؤلمة للعبد.

قال الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالسَّرْمَتِ وَبَشِيرِ الصَّابِرِينَ ١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ

(١) انظر: مجموع فتاوى ورسائل العثميين ٩٢/٢.

وأما المقضي فعلى أقسام:
القسم الأول: ما يجب الرضا به.
القسم الثاني: ما يحرم الرضا به.
القسم الثالث: ما يستحب الرضا به.
فمثلا المعاصي من مقضيات الله، ويحرم الرضا بالمعاصي، وإن كانت واقعة بقضاء الله، فمن نظر إلى المعاصي من حيث القضاء الذي هو فعل الله يجب أن يرضى، وأن يقول: إن الله تعالى حكيم، ولولا أن حكمته اقتضت هذا ما وقع، وأما من حيث المقضي وهو معصية الله فيجب ألا ترضى به، والواجب أن تسعى لإزالة هذه المعصية منك أو من غيرك، قال نبي الله موسى عليه السلام بعد أن قتل ذلك الرجل خطأ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ١٦﴾ [القصص: ١٦].

وقسم من المقضي يجب الرضا به: مثل الواجب شرعًا، لأن الله حكم به كونا، وحكم به شرعًا، فيجب الرضا به من حيث القضاء ومن حيث المقضي، كالصلاة والزكاة والحج.

وقسم ثالث: يستحب الرضا به، ويجب الصبر عليه، وهو ما يقع من المصائب، فما يقع من المصائب يستحب الرضا به عند أكثر أهل العلم ولا يجب، لكن يجب الصبر عليه، والفرق بين الصبر والرضا: أن الصبر يكون الإنسان فيه كارها للواقع، لكنه لا يأتي

﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

«قال سعيد بن جبير: لقد أعطيت هذه الأمة عند المصيبة ما لم تعط الأنبياء قبلها: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦].

ولو أعطيته الأنبياء لأعطيتها يعقوب، إذ قال: ﴿يَتَأَسَّفُ عَلَى يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤]»^(١).

وقال سبحانه أمراً عباده ومشوقاً لهم: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣] ومن

كان الله معه فقد زال عنه كل خوف، وزال عنه كل هم، وتأمل أخي المسلم كيف صدر الله هذه الآية بقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فكأنه سبحانه يستحث عباده الذين آمنوا به رباً وآمنوا بالقدر خيره وشره أن يستعينوا بهاتين الطاعتين العظمتين على كل ما يعانونه من أمورهم، أو يلاقونه من صعوبات ومحن في هذه الدنيا.

قال الرازي: «وإنما خصهما بذلك -الصبر والصلاة- لما فيهما من المعونة على العبادات، أما الصبر فهو قهر النفس على احتمال المكاره في ذات الله تعالى وتوطئتها على تحمل المشاق وتجنب الجزع، ومن حمل نفسه وقلبه على هذا التذليل سهل عليه فعل الطاعات وتحمل مشاق العبادات، وتجنب المحظورات والاستعانة بالصلاة لأنه يجب أن تفعل

(١) تفسير ابن أبي حاتم ١/٢٦٥.

على طريق الخضوع والتذلل للمعبود والإخلاص له، ويجب أن يوفر همه وقلبه عليها وعلى ما يأتي فيها من قراءة، فيتدبر الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، ومن سلك هذه الطريقة في الصلاة فقد ذلل نفسه لاحتمال المشقة فيما عداها من العبادات، ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ يعني في النصر لهم، كما قال: ﴿فَسَيَكْفِيكُمْ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧] فكأنه تعالى ضمن لهم إذا هم استعانوا على طاعاته بالصبر والصلاة أن يزيدهم توفيقاً وتسديداً والطفاء، كما قال: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَاهْتَدُوا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]»^(٢).

وعن قتادة أنه قال في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوقِ الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]: «لا والله ما هناكم مكيال ولا ميزان»^(٣).

وقد عد الصبر من خصائص المؤمن نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام فقال كما في حديث صهيب رضي الله عنه: (عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له)^(٤)، فليس هذا الفضل إذن إلا لأهل

(٢) مفاتيح الغيب ٤/١٢٥.

(٣) جامع البيان، الطبري ٢٠/١٧٩.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرفائق، باب المؤمن أمره كله خير، رقم ٢٩٩٩.

وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٣١﴾ [آل عمران: ١٨٩-١٩١].

فانظر كيف ختم الآية الأولى بقدرته ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، والآية الثانية بالعقول المتفكرة في عظيم صنعته وبديع قدرته وتقديره ﴿لِلأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ الذين يذكرون الله قيسًا وقعودًا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض.

قال ابن كثير: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: يفهمون ما فيهما من الحكم الدالة على عظمة الخالق وقدرته، وعلمه وحكمته، واختياره ورحمته، وقال الشيخ أبو سليمان الداراني: إني لأخرج من منزلي، فما يقع بصري على شيء إلا رأيت لله علي فيه نعمة، أو لي فيه عبرة. رواه ابن أبي الدنيا في كتاب «التفكير والاعتبار»^(٣)، وقال أبو الدرداء: تفكر ساعة خير من قيام ليلة^(٤).

وروى ابن عباس رضي الله عنهما في هذا مثلًا تطبيقيًا للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: بت عند خالتي ميمونة، فتحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أهله ساعة، ثم رقد، فلما كان ثلث الليل الآخر، قعد فنظر إلى السماء، فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ

الإيمان الذين من أعظم صفاتهم: أنهم يؤمنون بالقدر خيره وشره.

ثالثًا: التفكير والاعتبار:

قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يَقْدِرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [المزمل: ٢٠].

«أي: يقدر ساعاتهما وأوقاتها»^(١)، و«ياخذ هذا من هذا، أو هذا من هذا»^(٢).

وقال تعالى عن القمر: ﴿وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ﴾ [يونس: ٥].

أي: جعل له منازل.

وقال عن الأرض: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ [فصلت: ١٠].

وقال عن كل شيء: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ قَدْرَهُ نَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

هذه الآيات التي تبين قدرة الله تعالى على هذا الكون الواسع، وعلى عظيم تصرفه فيه وتقديره له؛ تحث كل عاقل على التأمل والتفكير في هذه القدرة الهائلة، والتقدير المذهل الدقيق المتقن لهذا الكون الفسيح على اختلاف المخلوقات فيه.

لهذا قال الله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [١٨١] إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولَى الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَسًا وَقَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٨٤.

(٤) الزهد، أحمد بن حنبل ص ١١٤.

(١) إعراب القرآن، النحاس ٥/ ٤٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٥٨.

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ
لَأَنْتَ لَا تُؤَلِّمُ الْآلِبَابَ ﴿١﴾.

رابعاً: الأخذ بالأسباب:

ومن التعامل الذي حث القرآن المؤمن أن يتعامل به مع القدر: أن يبذل الأسباب المشروعة في دفع الأقدار المؤلمة عنه قبل أن تقع، أو رفعها بعد وقوعها، وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما عاتبه أبو عبيدة رضي الله عنه على فراره من الطاعون: «نفر من قدر الله إلى قدر الله» (٢).

قال الله تعالى عن نبيه المبتلى أيوب عليه السلام: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ: أَيُّ مَسْنَى الشَّيْطَانِ يُضْمِرُ وَعَذَابٍ ۖ أَرْكُضُ بِرَبِّكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٍ ۖ﴾ [ص: ٤١-٤٢].

فكان الله تعالى قادرًا أن يشفي نبيه أيوب بأن يقول لمرضه: «كن» فيكون؛ لكنه سبحانه يعلم عباده بذل السبب لدفع القدر فقال له: ﴿أَرْكُضْ بِرَبِّكَ﴾.

وقال ربنا تعالى عن مريم عليها السلام

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾، رقم ٤٥٦٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون، رقم ٥٧٢٩، ومسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب الطاعون والطيبة والكهانة ونحوها، رقم ٢٢١٩.

لما جاء بها المخاض إلى جذع النخلة: ﴿وَهَزَىٰ إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسْقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا حِينًا ۖ﴾ [مريم: ٢٥] قال القفال: الجذع من النخلة هو الأسفل (٣)، فقد «استدل بقوله تعالى: ﴿وَهَزَىٰ إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ [مريم: ٢٥] على التسبب في الرزق، وتكلف الكسب، وإليه أشار القائل (٤):

ألم تر أن الله قال لمريم

وهزي إليك الجذع يساقط الرطب ولو شاء أحنى الجذع من غير هزه

إليها، ولكن كل شيء، له سبب ولأجل هذا المعنى قال الله تعالى لنبيه موسى عليه السلام عندما خرج مع قومه فارًا من فرعون وقومه، حتى أصبح البحر أمامهم، وفرعون وقومه خلفهم فقال له ربه: ﴿أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣] مع قدرته سبحانه على فلق البحر بدون ضربه بالعصا؛ لكنه بذل السبب الذي يربينا عليه القرآن.

خامساً: اختيار الحق:

يجب على المسلم أن يختار الحق، ويجتنب الباطل، ولا يحتج بالقدر في ترك الحق - كما مر سابقاً -؛ فإن الله تعالى قد بين له الطريقين - الخير والشر - فأمره باجتنب الشر واتباع الخير، وأنزل له من

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/٥٢٨.

(٤) انظر: محاسن التأويل ٧/٩٤.

نَكْسُوها لَحْمًا ﴿البقرة: ٢٥٩﴾.

فانظر كيف كرر الله هنا على عبده هذا الأمر بالنظر ثلاث مرات في آية واحدة! وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

وقال: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رِوْاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرًا لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٨﴾﴾ [ف: ٦-٨].

وبعد هذا من طلب الحق بصدق؛ وفقه الله تعالى له وهده، كما قال الحق سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

«قال السدي وغيره: نزلت هذه الآية قبل فرض القتال.

قال ابن عطية: فهي قبل الجهاد العرفي، وإنما هو جهاد عام في دين الله وطلب مرضاته»^(١)، ومن أعظم الجهاد: البحث عن الحق وطلبه من الله تعالى بالدعاء، مع التأمل والتفكير في آيات الله الكونية والشرعية، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿٧﴾﴾ [محمد: ١٧].

وقال: ﴿وَزَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ [المدرثر: ٣١].

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣٢٦.

أجل ذلك الكتب، وأرسل الرسل، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان: ٣].

وقال سبحانه: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد: ١٠].

وجعل له مشيئة وإرادة فقال تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

ثم خلق له عقلاً يستطيع به أن يميز بين الحق والباطل، قال الله سبحانه: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِنَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الحديد: ١٧].

حتى أن كلمة: (العقل) بتصرفاتها وردت في القرآن الكريم في تسعة وأربعين موضعاً.

ولم يتوقف إغذار الله تعالى لعباده عند هذا الحد؛ بل بث الله تعالى في هذا الكون الأدلة والآيات الباهرة التي تدل الإنسان على الخير والحق وعلى أن الله تعالى هو المعبود الذي لا شريك له، وبعدها بث الله الآيات في الكون حث العباد على النظر والتأمل والتفكير فيها لتدلهم على الهدى المستقيم والحق المبين؛ من ذلك قوله تعالى: ﴿بَلْ لَيْسَتْ عَلَيْهِمُ عَايَةٌ فَاَنْظُرْ إِلَى طُعَايِكَ وَسُرَايِكَ لَمْ يَتَسَنَّأْ وَأَنْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ

فهؤلاء الذين يبذلون ما أعطاهم الله من العقل والبصيرة والعلم في طلب الحق والهدى واختياره؛ هم أهل هداية الله تعالى وتوفيقه وإرشاده.

كل هذه الأمور تدعو المسلم لأن يكون من تعامله مع القدر: اختيار الحق والسعي في طلبه، واجتناب الباطل والسعي في تركه.

موضوعات ذات صلة:

الإيمان، التوكل، الرزق، الرضا، السعي، الصبر، الكتابة، الموت